بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، هدانا بفضله إلىٰ الإسلام، وامتنَّ علينا بنزول القرآن، والصَّلاة والسَّلام علىٰ أفصح بني الإنسان، الذي تحدَّىٰ بفصاحته أساطين البلاغة والبيان، أوصىٰ بالنساء خيرًا في عبارات تبدو كالزَّهرات الحسان، محمد بن عبد الله ﷺ وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

أما بعد

فكم حدَّثتنا صفحات التَّاريخ عن مواقف كثيرة تجلَّت فيها بطولة المرأة العربية إذا أردنا أن نسجِّلها عن طريق العدِّ والإحصاء فعلينا أن نعهد بذلك إلىٰ كثير من الهيئات والمؤسَّسات العلميَّة؛ لأنَّ الاجتهادات الشَّخصية والنَّزعات الفردية غالبًا لا تستطيع أن تتحمَّل هذا العبء الكبير، ثم ننتظر بعد ذلك عدَّة سنوات وربَّما عدَّة قرون حتىٰ يمكن أن نقرأ ذلك في كتاب جامع يشهد به القاصي والدَّاني، فما أجمل تلك العبارة التي تناقلتها الأجيال فنصَّت صراحة علىٰ أن كل عظيم وراءه امرأة، ونضيف ونقول وكل من أسعدته الدُّنيا وتسعد به الآخرة كذلك.

وإذا كانت هناك بعض النَّزعات الجاهلية قد أهانت المرأة وأساءت إليها فهذا من باب الشَّاذ الذي لا يقاس عليه؛ وذلك لأنَّ المجتمع العربي في الجاهلية وكذلك في ظلِّ تعاليم الإسلام وضع المرأة فوق الرءوس وأعطىٰ لها جميع الحقوق وجعلها في مقدمة أولوياته بل كانت هي كل حياته أيًّا كان تصنيفها -أمَّا أم زوجة أم أختًا أم ابنة-، وهذا ما لا يمكن أن يخضع للتَّجربة أو الفحص والتحليل، فالمرأة العربية منذ بدء الخليقة وهي تعلم أنَّها قرين الرَّجل وشريك حياته، تدرك حجم هذه المسئولية جيدًا وتقدِّرها قدرها، لذلك عاشت معه أفراحه وأتراحه ولم تكن خلفه بل كانت بجواره في كثير من أعماله، فتارة تأخذ بيديه وتدفعه إلىٰ الأمام من أجل تحقيق الآمال والطُّموحات ثم تنجب له كثيرًا من الرُّموز الذين ازدانت بهم الدنيا في كل زمان ومكان، وتارة أخرىٰ تحمل الرَّاية منفردة مغرِّدة في كثير من المجالات.

فعلىٰ وجه العموم فالمرأة العربية تعيش الحياة بكل إيجابية كما علَّمتها طبيعة الحياة العربية في الجاهلية، وكما علَّمها الإسلام بمبادئه وقيمه وأخلاقه.

فإن حدَّثتك عن المرأة العربية في ميادين القتال ومبارزة الأعداء فقد كانت في بعض الأحيان مضرب الأمثال، وأما كونها مَدْرَسة تقوم بتخريج الأجيال والأبطال وتقديم نماذج مشرِّفة فالزَّمان شاهد وكذلك المكان، وأما كونها وعاء العلم والمعرفة تتلمذ علىٰ يديها كثير من النابهين في مختلف العلوم والفنون فحدِّث ولا حرج، وإن نُسِبَ إليها كثير من أبناء العلا علىٰ سبيل الفخر والمدح فهذا واضح وصريح، وإن سَبقت بفضلها وعطائها فاقرأ وسوف تجد من هذه النَّماذج الكثير، وإن أضفت إلىٰ اسمها علامة تأنيث أو لم تضف فهي بتكوينها وعِلْمها قادرة علىٰ تغيير كثير من المفاهيم والمعطيات المغلوطة التي تسمَّت باسم المبادئ والمعايير، فالمرأة رمز خُلِقَ ليكون، بالأمس سَطَّرَ المآثر وفي الحاضر والمستقبل عازم علىٰ المضي في هذا السَّبيل.

وهذه الصَّفحات أسجِّل فيها بطولة من بطولات المرأة العربية لكنَّها ليست خاصَّة بميدان السَّيف والنِّزال وإنَّما هي بطولة وميدان الكلمة، أو قل لغة المرأة خاصَّة في الزَّمن الماضي الذي كانت فيه الفصاحة والبلاغة كالطَّعام والشَّراب، عندما قرأت بعض النُّصوص في هذه العصور الواردة علىٰ لسان المرأة سواء في العصر الجاهلي أوعصر صدر الإسلام وخاصَّة النثريَّة منها كدت أشعر بأنَّ المرأة عندما تتكلَّم إنَّما تحتفظ في ذاكرتها بمعجم لغوي تجده مقروءًا أمام عينيها، تقلِّب صفحاته أينما شاءت فتستطيع أن تتخيَّر منه ما تشاء من الألفاظ وتقوم بنسجها في التَّراكيب علىٰ حسب لغة الموقف التي تريد بكل أريحيَّة ودون أدنىٰ تعقيد، فترىٰ هذه الألفاظ كأنَّها حبَّات من لؤلؤ قد نظمت في عقد رائع وبديع، فالبداية كانت مع جمال اختيار الألفاظ علىٰ حسب لغة التَّصنيف، ثم بعد ذلك يأتي التَّوصيف والتَّوظيف بطريقة أجمل وأبدع فتخرج النُّصوص كتاج عروس تلفت الأنظار وتأسر

العقول والقلوب، فليست المرأة في هذه الكلمات والعبارات أديبة فقط إنَّما هي حكيمة وناقدة ومربيَّة.

لذلك عندما قرأت عن أدبيات النِّساء ورأيت ما فيها من الحكمة والبلاغة والبيان والتَّعامل مع الأحداث بمصداقية النَّاقد الخبير بمواطن الحسن والقبح والجيد والرديء والتَّعرف علىٰ طبائع البشر وطريقة تركيبها، ولغة الحوار التي قد تجدها بأسلوب ما في عالم الأسرة وما يحيط بها من دفء وحنان، ثم بأسلوب آخر في عالم المجتمع الخارجي وما يحيطه من جدل ونقاش ومراعاة لطبيعة الزَّمان والمكان فقلت في هذه الحالة إنَّ لغة الكلمات هي تجسيد لحالة القلوب وما يعتريها من سعادة وشقاء وهدوء وانفعال، قد تظنُّها صورة باهتة لا ملامح لها ولكنَّها في الحقيقة هي الحقيقة التي ترسم وتجسِّد الماضي وتخطِّط لواقع الحاضر والمستقبل.

ومن هنا ركَّز الباحث علىٰ مجموعة من هذه النُّصوص التُّراثية في النثر الأدبي تجسَّدت فيها لغة اختيار الألفاظ والتَّوظيف لها في عدَّة مجالات، كل مجال منها له عنوان وواقع خاص ترىٰ من خلاله بداية لغة الأم التي تدفع بأبنائها إلىٰ الجهاد وهي تعتصر ألمًا، فربَّما يكون هذا هو اللقاء الأخير ولكن الجنَّة ترفض لغة الخوف وتعترف بلغة البذل والعطاء، فتخيَّل طريقة اختيار الكلمات في هذا اللقاء وطريقة توظيفه في لغة الحوار قبل أن تقرأ النَّص في نسخته الأخيرة، ثم لك أن تحكم علىٰ لغة الكرم والجود والنَّجدة والمروءة في حوار تلحظ فيه جانب الاستعطاف والاسترحام بكل مجامع الخير أوبكل لغات الشَّهامة والأخلاق، ثم أدر ناظريك إلىٰ حوار ثالث ولغة النُّصح والإرشاد لولد تحيط به المخاطر في سفر بعيد مهما أحاطت به الكروب وتقاذفته ريح الظلمات وصادفته كواسر البشر والحيوانات فعليه بجميل الأخلاق وحسن الطِّباع، فالمرء لن يعيش كريمًا إلا في جلباب النُّبل ونهار الصِّدق والوفاء، وروضة الصَّبر وطرح عالم الغش والخداع، وإليك حوار رابع ترىٰ فيه لغة دوام المعاشرة بالمعروف وأمارات السَّكن والمودة والرَّحمة، إنَّه رباط الزَّوجية الذي بدأ ليكون عماد المجتمع فاحفظ تلك النَّصائح الغاليات، وأخيرًا لغة

الوصف فيمَنْ تحبُّ أن تراه من الرِّجال والنِّساء في حالة الاختيار، ثم أجمل وأفضل الآباء، وذلك من خلال التنويع في أسلوب ولغة الحوار فتجد المستقبل خلاف الحاضر، وديباجير الظلام قد تحوَّلت إلىٰ ضياء النَّهار، فتلحظ بعض الأساليب الخبرية التي تهدف إلىٰ تقرير المعني وتوضيحه، والأساليب الإنشائية التي تهدف إلىٰ لفت انتباه المخاطب وإعمال فكره، مع جمال براعة الاستهلال الذي يتميَّز بالإصغاء إلىٰ الحوار وطرح ما عداه، وحسن الختام الذي يترك البصمات ويحوِّل السَّماع إلىٰ تدبُّر وتأثُّر، وهذا كله من خلال عنوان يُسَمَّىٰ: (الإبداع اللغوي عند المرأة العربية. نماذج نثرية «تصنيف وتوصيف») اقتضت الدِّراسة فيه الإيجاز والمعالجة بشيء من الرَّبط بين لغة التَّصنيف والتَّوصيف، وذلك عن طريق المنهج الوصفي التحليلي والتقسيم إلىٰ خمسة مباحث تسبقهم مقدمة، ثم يأتي التَّذييل بخاتمة. وعناوين تلك المباحث كالآتي:

المبحث الأول: الخنساء ولغة الجهاد.

المبحث الثاني: سفانة بنت حاتم الطَّائي ولغة المروءة.

المبحث الثالث: أعرابية ولغة السفر.

المبحث الرابع: أمامة بنت الحارث ولغة الزَّواج.

المبحث الخامس: العجفاء بنت علقمة ولغة الوصف.

وبعد، فلست ممن يضخِّم الأحداث ويعطيها أكثر من حقِّها رغبة في إبراز فكرة أو تأييد مذهب، وفي الوقت نفسه لا أتعامل معها بتهاون أوتقصير حتىٰ تضيع معالمها إنَّما أحاول قدر الإمكان أن أنظر إلىٰ الأمور بواقعية حتىٰ أرىٰ الأشياء علىٰ صورتها الصَّحيحة فتحكم علىٰ نفسها قبل أن يحكم القارئ عليها، وعندما فعلت ذلك وجدت الصُّورة تنطق أولاً بفصاحة وجزالة اللفظ في بداية الاختيار، ثم يأتي الإبداع مع التَّوظيف والتَّوصيف في داخل هذه النُّصوص أوما يسمىٰ بلغة الحوار، وذلك بطريقة تدعو إلىٰ طرح كثير من علامات التَّعجب وكذلك علامات الاستفهام، فكل حوار عندها له روضته اللغويَّة الخاصَّة به تقتطف منه ما تشاء هدية

لمن أراد أن يتعلَّم لغة الكلام، ولكن يزول ذلك عند معرفة طبيعة تلك الأمَّة التي تنتسب لها المرأة العربية بأنَّها تلك الأمَّة التي امتلكت ناصية الفصاحة ودانت لها جميع قواعد البيان.

وفي النهاية فلست أديبًا أسرح بخيالي وأغوص بفكري وأحاول أن أسجِّل بقلمي ما تحمله الكلمات والعبارات من خفايا أسرار الدلالات، ولكن مهمتي أنني ضيف علىٰ أهل اللغة أنظر في معاجم العربية وشروح ألفاظها، ثم أعيد النَّظر في سياق الحوار الخاصِّ بتلك النَّماذج النثريِّة في حوار النساء في ضوء التَّصنيف والتَّوصيف، وذلك بضم الألفاظ حتىٰ تخرج من حال الجمود والسُّكون إلىٰ حال الحركة والانطلاق فأهيئها لاستقبال عالم جديد يخضع لظروف الزَّمان والمكان فنرىٰ من خلالها جمال اللغة وروعة الأساليب في تلك العصور؛ لذلك استعنت في غالب الأحيان بالمصادر الأدبيَّة ومعاجم العربيَّة.

فإن وضحت الفكرة بالصُّورة التي أردتها فهذه منَّة من الله ﷻ عليَّ وفيض أعترف وأقرُّ به صباح مساء، وإن كانت الأخرىٰ فالله أسأل التَّوفيق فيما يجد بعد ذلك من أعمال، والعفو والصَّفح علىٰ الخلل أوالتَّقصير، وأن يكون المستقبل أفضل بإذنه تعالىٰ إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: 8]

المبحث الأول

الخنساء ولغة الجهاد

«حضرت الخنساء بنت عمرو بن الشَّريد السلمية حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال فقالت لهم من أول الليل: يابني إنَّكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، ووالله الذي لا إله إلا هو إنَّكم لبنوا رجل واحد كما أنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم، ولا هجنت حسبكم، ولا غيَّرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعدَّ الله للمسلمين من الثَّواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أنَّ الدَّار الباقية خير من الدَّار الفانية.

يقول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200]، فإذا أصبحتم غدًا إن شاء الله سالمين فاغدوا إلىٰ قتال عدوكم مستبصرين، وبالله علىٰ أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شَمَّرَتْ عن ساقها، واضطرمت لظىٰ علىٰ سياقها، وجُلِّلت نارًا علىٰ أرواقها فتيمَّموا وَطِيسها، وجَالِدوا رئيسها عند احتدام خَمِيسها تظفروا بالغُنْمِ والكرامة في دار الخلد والمقامة»[1].

لغة الحوار تختلف من مقام إلىٰ مقام ومن حال إلىٰ حال، فقد تصلح بعض الألفاظ في باب ولا تصلح في غيره، فيختار المتحدِّث أنغام الحروف والحركات

(1) الاستيعاب في معرفة الأصحاب. يوسف بن عبد الله بن عبد البر. تحقيق. علي محمد البجاوي 4/ 1828- دار الجيل - بيروت - الطبعة الأولىٰ1412هـ.
وينظر: خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. عبد القادر بن عمر البغدادي. تحقيق. محمد نبيل طريفي، د. إميل بديع يعقوب 1/ 417- دار الكتب العلمية - بيروت -الطبعة الأولىٰ 1998م، والإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني. تحقيق. علىٰ محمد البجاوي 7/ 516- دار الجيل - بيروت- الطبعة الأولىٰ 1412هـ-1992م، وجمهرة خطب العرب في عصور العرب الزاهرة. أحمد زكي صفوت 1/ 231- المكتبة العلمية - بيروت.

علىٰ حسب حال السَّامع وما يناسب المقام من ظروف وملابسات، والخنساء في حوار ثنائي يجمعها بأبنائها الأربعة بعد أن أعلنت الإسلام تُسَطِّر مجدًا يشهد به تاريخ الإسلام بل قل تاريخ الإنسانية جمعاء، فالمتعارف عليه أنَّ لغة الأمومة لها أبجديات خاصَّة بها غالبًا تبدأ بالنَّصائح والتَّوجيهات التي تبغي الحفاظ علىٰ الجسد باختيار أفضل وأشهىٰ المأكولات وإن سمت بالروح فغايته عالم الحبِّ والحنان والرِّفق بالآباء والأمهات وعدم العقوق الذي يكون سببًا في شتات الأسر والمجتمعات، ولكنَّك مع هذا الحوار تجد منحىٰ آخر عنوانه الجهاد في سبيل الله فتجد له تصنيفه ولغته وأبجدياته التي هذَّبها الإسلام وسما بها إلىٰ عنان السماء تبدأ بالإسلام والاستسلام لأمر الخالق العظيم ﷻ حتىٰ تكون النَّتيجة الفوز بدار الخلد والمقامة، فتحسن البدء والختام، فتختار الكلمات بدقَّة وعناية بالغة علىٰ حسب الأحداث والانتقال من مرحلة إلىٰ أخرىٰ؛ وذلك بتوصيف رائع في داخل الجمل والعبارات، مع مراعاة اختيار أسلوب السَّجع بين الكلمات دون تصنُّع أو تكلُّف، فكل مجموعة من العبارات تنتهي بحرف ما لتحقيق التآلف والتناغم في داحل النَّص الواحد، الذي يجعل للكلام رونقًا خاصًّا وطبيعة محبَّبة إلىٰ النُّفوس تدفعه بقوة إلىٰ النَّفاذ والتَّأثير والخروج من دائرة الشَّكِّ إلىٰ دائرة اليقين. فـ «السَّجع ضرب من الزينة لايتأتَّىٰ هكذا بمجرد الظَّفر بلفظتين متشابهتين وزنًا وتقفية. فلا تحصل الجمالية المرتقبة من السَّجع حتىٰ يراعىٰ الآتي:

1- أن تتحلَّىٰ المفردات بالرَّشاقة والأناقة وروعة الجَرْس والخفَّة علىٰ السَّمع.

2- أن تنقاد الألفاظ للمعاني، وتفرِض الصُّورة المعنوية الصُّورة اللفظية التي تناسبها، حتىٰ لا يكون السَّجع مجرد زيادة في اللفظ أو نقصان فيه.

3- أن تكون المعاني الحاصلة عند التركيب مألوفة غير مستنكرة، أي لم يجتلبها تطلُّبُ السَّجع.

4- أن تستقل كل قرينة من القرينتين بدلالتها الخاصَّة بها، وإلا كان السَّجع تكرارًا عديم الفائدة.

5- أن تنسجم القرينتان في الطُّول؛ حتىٰ يتم التَّناغم والانسجام، ولا يُحْبَط توقُّع المتلقِّي.

6- ينبغي أن تظلَّ فواصل القرائن مُسَكَّنة؛ إذ لايتم التَّوافق في كل الصُّور إلا بالوقف بالسُّكون»[1].

كما تلحظ في هذه الوصية أيضًا كثيرًا من الأساليب المختلفة التي تفترق لتجتمع وتختلف لتتَّفق، فتجد كثيرًا من أساليب الإنشاء الطلبي وغير الطلبي، فتلحظ من النوع الأول:

1- النِّداء في قولها: يابني حتىٰ تستثير في نفوسهم مشاعر البنوة التي تحرص جاهدة علىٰ إرضاء الأمهات وتكتفي به في البداية فقط.

2- الأمر في قولها: واعلموا أنَّ الدَّار الباقية خير من الدَّار الفانية. ومن النوع الثاني القسم في قولها: ووالله الذي لا إله إلا هو. ثم تلحظ بعضًا من أسلوب الخبر المؤكد مثل:

1- إنَّكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين

ب- إنَّكم لبنوا رجل واحد.

ج- وإنَّكم لبنوا إمرأة واحدة.

د- وقد تعلمون ما أعده الله للمسلمين. ثم تستشهد بآية قرآنية للدَّلالة علىٰ صدق حديثها وأمانة مقالتها فتصيب كبد الحقيقة.

2- النَّفي في قولها: ماخنت أباكم ولا فضحت خالكم ولا هجنت حسبكم ولا غيَّرت نسبكم

3- الشَّرط في قولها: فإذا أصبحتم غدًا إن شاء الله سالمين ... -فإذا رأيتم

(1) المفصل في علوم البلاغة العربية (المعاني - البيان - البديع) د. عيسىٰ علىٰ العاكوب ص650، 649- دار القلم - الإمارات العربية المتحدة - دبي - الطبعة الثانية 1426هـ-2005م.

الحرب ...، وهذا التَّنويع في الأسلوب سبيل من سُبُل جعل لغة الحوار لغة مشتركة بين المتكلِّم والمتلقِّي.

وقد قرأت هذا الحوار أكثر من مرَّة رغبة في تجسيد مفهومه وإدراك بعض أسراره فوجدت أنَّه من الممكن علىٰ حسب ورود ألفاظه وعرض دلالاته تقسيمه إلىٰ خمس مجموعات علىٰ حسب المراحل التي مرَّ بها:

المجموعة الأولىٰ: ألفاظ الاختيار

تضمُّ هذه المجموعة أربعة ألفاظ تمهيدية كبراعة استهلال ليس من شأن المتحدِّث بها الإطالة حتىٰ لايمله المستمع أو ينفر منه، وإنَّما جاءت في صورة برقيَّات تبدأ بالإسلام وتنتهي بمختارين باعتبار الأول العنوان الذي لا بد من تسطيره قبل الدخول إلىٰ أي مجال، ثم الآخر لأنَّ الإكراه لا يمكن أن تتمَّ من خلاله التَّضحيات أوالفداء بكل غال وثمين، وتوضيح المفردات بداية خير شاهد ودليل:

1- أسلمتم: الإسلام والاستسلام: الانقياد.

2- طائعين: الطَّوْع: نقيض الكُرْه. وجاء فلان طائعًا غيرَ مُكْرَه. وفي التهذيب: وقد طَاع له يطوع: إذا انقاد له، بغير ألف، فإذا مضىٰ لأمره فقد أطاعه، فإذا وافقه فقد طاوعه.

3- هاجرتم: والهِجْرَة والهُجْرَة: الخروج من أرض إلىٰ أرض، والمهاجرون: الذين ذهبوا مع النبي ﷺ، مشتق منه.

قال الأزهري: وأصل المُهَاجرة عند العرب خروج البدوي من باديته إلىٰ المدن؛ يقال: هاجر الرجل إذا فعل ذلك، وكذلك كل مُخْل بمسكنه مُنْتَقِل إلىٰ قوم آخرين بِسُكناه، فقد هاجَرَ قومه، وسُمِّي المهاجرون مهاجرين لأنَّهم تركوا ديارهم ومساكنهم التي نشئوا بها لله، ولحقوا بدار ليس لهم بها أهل ولامال حين هاجروا إلىٰ المدينة، فكل من فارق بلده من بدوي أو حضري أو سكن بلدًا آخر، فهو مهاجر، والاسم منه الهِجْرة.

4- مختارين: اخْتَرْت فلانًا على فلان: عُدِّي بعَلَى لأنه في معنى فَضَّلْتُ. وخَيَّرته بين الشيئين: أي فَوَّضت إليه الخِيار[1].

نتعلَّم من الخِنساء كيف بدأت الحوار كمدخل جيد لترقيق القلوب وإضافة صبغة الرِّضى والقبول وامتلاك ناصية القلوب، فاستخدام ألفاظ الاختيار والاستسلام ضرورة فرضتها طبيعة الحوار كتمهيد للإصغاء وعقد النِّية على الاستمرار في السَّماع، وإذا حدث ذلك فقد قطعت نصف الشِّوط وقد تحقَّق ماأرادت، حيث أعاروها أسماعهم تفعل بها ما تشاء وذلك حتى تنطلق من خلالها إلى ألفاظ المجموعة الثانية.

المجموعة الثانية: ألفاظ العزَّة والكرامة

عن طريق استخدام أداتي النفي (ما) و (لا) قبل كل لفظ من ألفاظ هذه المجموعة التي انحصرت أيضًا في أربعة توجِّه الخنساء رسالتها إلى أبنائها بأنَّها ما كانت لتتَّصف بخبيث الخلال ولكنَّها كانت تتصف بأخلاق السَّادة الكرام، وهنا تشعر بأنَّ الكلام فيه نوع من أنواع التَّدريج وذلك حتى تحقِّق ما تريد؛ لأنَّ إلقاء الكلام مباشرة دون تمهيد ربَّما يكون سببًا في رفضه وعدم الإصغاء إليه، وذلك باستخدام الإيجاز أيضًا قبل الدُّخول إلى لبِّ الموضوع.

1- خُنْت: الخيانة: مخالفة الحقِّ بنقض العهد في السِّرِّ، ونقيض الخيانة: الأمانة. يقال: خنت فلانًا، وخنت أمانة فلان.

2- فضحت: الفَضْح: فعل مجاوز من الفاضح إلى المفضوح، والاسم

(1) ينظر هذه الكلمات ودلالتها في: لسان العرب لابن منظور الإفريقي. تحقيق. عبد الله علي الكبير وآخرين (س ل م) 3/ 2080- دار المعارف، (ط و ع) 4/ 2720.

وينظر: تهذيب اللغة. أبو منصور الأزهري. تحقيق. محمد عوض مرعب (ع ط و) 3/ 66، (هـ ج ر) 6/ 29- دار إحياء التراث العربي- بيروت - الطبعة الأولى 2001م، ولسان العرب 6/ 4617. وفيه أيضًا: (خ ي ر) 2/ 1299.

الفضيحة. ويقال: افتضح الرجل يفتضح افتضاحًا: إذا ركب أمرًا سيئًا فاشْتَهَر به. والفضيحة: اسم من هذا لكل أمر سيئ يَشْهَرُ صاحبَه بما يسوء.

3- هجنت: والهُجْنَة من الكلام: ما يعيبك. والهَجِين: العَربي ابن الأمَة لأنَّه مَعيب، وقيل: هو ابن الأمَة الرَّاعية ما لم تُحْصَن، فإذا حُصِّنَتْ فليس الولد بهجين. أبو العباس أحمد بن يحيىٰ قال: الهَجِين: الذي أبوه خير من أمِّه؛ قال أبو منصور: وهذا هو الصَّحيح.

قال المبرد: قيل لولد العربي من غير العربيَّة هَجِين لأنَّ الغالب علىٰ أولاد العرب الأُدْمَة.

4- غَيَّرت: تَغَيَّر الشيء عن حاله: تَحَوَّل. وغَيَّرَه: حَوَّلَه وبَدَّله، كأنَّه جعله غَيْرَ ما كان[1].

وكأنَّها بهذه الكلمات واستقرارها في عالم العبارات تقول لأبنائها الأربعة بأنَّ هذا هو طبع هذه العائلة، فقد ورثت هذه الخلال كابرًا عن كابر وأنتم من هذا النَّسل، فأنتم أبناء الأصول الذين عاشوا في عالم الطُّهر والنَّقاء دون أن يدنس عرضهم أو يخدش كبرياؤهم فلن تقوم لكم قائمة إلا إذا كنتم نموذجًا منهم وصورة حيَّة عاشت بعد رحيلهم.

المجموعة الثالثة: ألفاظ التَّحفيز والجائزة

إذا بالحوار ينتقل إلىٰ عالم التَّحفيز والجائزة وبيان ما أعدَّه الله لعباده المسلمين، وكأنَّها مسابقة من مسابقات العَدْو تحتاج إلىٰ أصحاب النَّفس الطَّويل والقدرات الخاصَّة مع أنَّها مسابقة إلىٰ الموت ولكنَّه الموت من أجل مبدأ، فلكل

(1) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصبهاني. أعده للنشر د. محمد أحمد خلف الله (خ و ن) ص230- مكتبة الأنجلو المصرية.

وينظر: لسان العرب (ف ض ح) 5/ 3425، (ه ج ن) 6/ 4625، وتهذيب اللغة 6/ 40، ولسان العرب (غ ي ر) 5/ 3325.

عمل ثمرة ولكل مجتهد نصيب، فمَنْ منكم يسعد بدار الحياة الأبديَّة وينال جائزتها، ومن منكم يشقىٰ ويكتوي بدار الممات، مع التَّذييل بآية قرآنية جامعة مانعة؛ لذلك تكثر الكلمات وتزداد العبارات لمناسبة هذا المقام والدُّخول بعده مباشرة إلىٰ الغرض المطلوب والهدف المنشود.

1- الثَّواب: جزاء الطَّاعة.

2- الجزيل: العظيم. وعطاء جَزْل وجَزِيل: إذا كان كثيرًا.

3- الدَّار: المَحَلُّ يجمع البناء والعَرْصَة، أنثي؛ قال ابن جني: هي من دار يدور لكثرة حركات الناس فيها. وكل موضع حَلَّ به قوم فهو دارهم. والدُّنيا دار الفناء والآخرة دار القرار ودار السَّلام.

3- الباقية: البقاء ضدُّ الفناء.

4- الفانية: الفناء ضدُّ البقاء.

5- اصبروا، وصابروا: أصل الصَّبر الحبس، وكل من حَبَسَ شيئًا فقد صَبَرَه. والصَّبْر: نقيض الجزع. الجوهري: الصَّبْر: حبس النَّفْس عند الجزع، وقد صبر فلان عند المصيبة يصبِر صبرًا.

وقوله ﷻ: ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ أي اصبروا واثبتوا علىٰ دينكم، وصابروا أي صابروا أعدائكم في الجهاد.

6- رابطوا: والرِّباط والمُرَابَطَة: ملازمة ثَغْر العدو، وأصله أن يَرْبِط كل واحد من الفريقين خَيْلَه، ثم صار لزوم الثَّغْر رباطًا، وربما سُمِّيت الخيل أنفسها رباطًا. والرِّباط: المواظبة علىٰ الأمر.

قال الفارسي: هو ثانٍ من لزوم الثَّغْر، ولزوم الثَّغْر ثانٍ من رباط الخيل. وقوله ﷻ: ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾، قيل: معناه حافظوا، وقيل: واظبوا علىٰ مواقيت الصلاة. الرِّباط في الأصل: الإقامة علىٰ جهاد العدو بالحرب، وارتباط الخيل وإعدادها، فشُبه ما ذكر من الأفعال الصالحة به.

7- تفلحون: الفلاح: الفوز والنَّجاة والبقاء في النَّعيم والخير. والفلاح: الفوز بما يُغْتَبَط به وفيه صلاح الحال[1].

فالخنساء في هذه المجموعة خبيرة ماهرة بأحوال النُّفوس وما يصلح للسَّيطرة عليها، فالعمل إن لم تكن له نتيجة فلافائدة ولا جدوىٰ منه، فوضعت يدها وبرفق علىٰ موضع الجرح فعالجت مابه من سقم إلىٰ أن عاد كهيئته الأولىٰ، وربَّما يكون أفضل وأحسن حالاً، فالفلاح والنَّجاح في دار البقاء غاية كل مسلم، ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر.

المجموعة الرابعة: ألفاظ اشتعال الحرب

انتقلت الخنساء في هذه المجموعة من حال السِّلْم والأمن والأمان إلىٰ حال الخوف والفزع والقلق، وذلك بعد أن هيئت النفوس تهيئة صحيحة فبدأت تحكي لهم وتسرد لهم سردًا دقيقًا اشتعال لظىٰ الحرب وما يحدث فيها من أهوال وملمَّات وانتزاع للقلوب من الصُّدور فأوصتهم بالثَّبات والدَّفع بالعزائم والقدرات التي تنبئ أنَّهم أبناء المعارك يعلمون حالها ويدركون أبعادها، ولمناسبة هذا المقام الذي يُعَدُّ هو العنوان والغاية التي تبغي من وراء هذا الحوار وجدنا كمًّا هائلاً من الألفاظ والعبارات التي تجعل القلوب تنخلع من مكانها وتهيئها لاستقبال هذا العالم الجديد.

1- سالمين: السَّلام والسَّلامة: البراءة.

2- مستبصرين: تَبَصَّر في رأيه واستبصر: تَبَيَّن ما يأتيه من خير وشر. واستبصر في أمره ودينه: إذا كان ذا بصيرة.

---

(1) لسان العرب (ث و ب) 1/ 519، (ج ز ل) 1/ 618، (د و ر) 2/ 1452، (ب ق ي) 1/ 330، (ف ن ي) 5 /3477، وتاج اللغة وصحاح العربية للجوهري. تحقيق. أحمد عبد الغفور عطار (ص ب ر) 2/ 706- دار العلم للملايين - بيروت - لبنان - الطبعة الثالثة 1376هـ-1956م، ولسان العرب 4/ 2391، (ر ب ط)1/ 1561، (ف ل ح) 5/ 3458.
وينظر: الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي) 2/ 659، 658- دار الحديث - القاهرة -1423هـ-2002م.

3- مستنصرين: الاستنصار: استمداد النَّصْر. واستنصره علىٰ عدوه: أي سأله أن ينصره عليه.

4- ساقها: سُوق القتال والحرب وسُوقَتُهُ: حَوْمَتُهُ، وقد قيل إنَّ ذلك من سَوْق النَّاس إليها. السَّاق في اللغة: الأمر الشَّديد، وكَشْفُهُ مَثَلٌ في شدَّة الأمر، كما يقال للشَّحيح يده مغلولة ولا يد ثَمَّ ولا غُلَّ، وإنما هو مَثَلٌ في شدَّة البخل، وكذلك هذا، لا ساق هناك ولا كُشْفَ؛ وأصله أنَّ الإنسان إذا وقع في أمر شديد يقال: شَمَّرَ ساعده، وكشف عن ساقه، للإهتمام بذلك الأمر العظيم.

5- اضطرمت: اشتعلت والتهبت.

6- لظىٰ: النَّار، وقيل: اللهب الخالص. وسُمِّيت بذلك لأنَّها أشدُّ النِّيران.

7- سياقها: ساق بنفسه سياقًا: نزع بها عند الموت.

8- جُلِّلَتْ: جَلَّ الشيء يَجِل: عظم.

9- أرواقها: الرَّوْق: الحرب الشَّديدة.

10- فتيمَّموا: تيمَّمته: قصدته.

11- وطيسها: الوطيس: المعركة لأنَّ الخيل تَطِسُّها بحوافرها.

وقال النبي ﷺ في حُنَيْن: **الآن حمىٰ الوَطِيس**[1]، وهي كلمة لم تسمع إلا منه، وهو من فصيح الكلام عَبَّرَ به عن اشتباك الحرب وقيامها علىٰ ساق.

12- جالدوا: الجَلَدُ: القوَّة والشِّدَّة.

13- رئيسها: الرئيس: سيد القوم.

14- احتدام: الاحتدام: شدَّة الحرِّ. الجوهري: احتدمت النار: التهبت. واحتدمت القِدْر: إذا اشتد غليانها.

---

(1) صحيح مسلم. تحقيق. محمد فؤاد عبد الباقي 3/ 1398- كتاب الجهاد والسِّير- باب في غزوة حنين - دار إحياء التراث العربي - بيروت.

15- خميسها: الخميس: الجيش، وقيل: الجيش الجَرَّار، وقيل: الجيش الخَشِنُ[1].

فهذا هو غبار المعارك الذي استطاعت الخنساء أن تُجَسِّده بكل دقَّة ووضوح، وهذا لا اعتبار له ما دامت القلوب قد انتزعت هذا الغبار وأصبحت مستعدة لاستقبال الغد بكل ترحاب مهما كان وصفه ومصيره، فأصبح الموت والحياة عندها سواء، فليحمىٰ وطيس الحرب ولتشمِّر عن ساقيها كيفما شاءت وليكن ما يكون مادام الهدف محمود والمقصد مأمول.

المجموعة الخامسة: ألفاظ النَّتيجة والختام

بعد هذا الحوار الذي فصَّلت وأطنبت فيه الخنساء ووصفت فيه بدقَّة طبيعة الحروب وما فيها من ويلات ما النتيجة إذًا التي تحقِّق الآمال وتمحو كل دروب الآلام؟ تختصرها في كلمات ومجموعة يسيرة من العبارات بأنَّها الجنَّة عندما تأخذ وعدًا بأنَّك من أهلها وسكَّانها يهون أمامك كل شيء حتىٰ الرُّوح تستعذب الموت من أجل الوصول إليها.

1- تظفروا: الظَّفَرُ بالفتح: الفوز بالمطلوب.

2- الغُنْم: الفوز بالشيء من غير مشقَّة.

3- الكرامة: أكرم الرجل وكَرَّمه: أعظمه ونزَّهه.

4- الخلد: دوام البقاء في دار لا يَخْرُجُ منها. ودار الخلد: الآخرة لبقاء أهلها فيها.

5- المُقَام والمُقَامة: الموضع الذي تقيم فيه، والمُقَامة بالضَّم: الإقامة.

---

(1) ينظر: لسان العرب (س ل م) 3/ 2077، (ب صر) 1/ 291، (ن صر) 6/ 4440، (س و ق) 3/ 2154، (ض ر م) 4/ 2582، (ل ظ ي) 5/ 4039، (س و ق) 3/ 2154، (ج ل ل) 1/ 662، (ر و ق) 3 / 1779، (أ م م) 1/ 132، (و ط س) 6 / 4866، (ج ل د) 1/ 654، (ر أ س) 2/ 1533، (ح د م) 2/ 807، والصحاح 5/ 1894، ولسان العرب (خ م س) 2/ 1264.

والمَقَامة بالفتح: المجلس والجماعة من الناس[1].

تختتم الخنساء بهذه الألفاظ هذا الحوار الذي تجد فيه أمًّا حانية ونفسًا سامية وهمَّة عالية لا تتعجَّب من تلك الصِّفات عندما تراها تدفع في الظَّاهر بأبنائها إلىٰ الموت ولكنَّها تدفع بهم في الحقيقة إلىٰ الحياة التي لا تقرأها وإنَّما تراها بعين البصيرة وتشعر بوجودها حاضرة في كل مكان علامة بارزة وشمسًا ساطعة في عالم تقدير الكبار، فربما تختلف الألفاظ من حوار إلىٰ حوار وربما يختلف المشهد ويختلف الأشخاص ولكن يظلُّ للحقِّ وجه واحد حتىٰ وإن اختلفت حول تجسيد مفهومه الآراء. فقد بدأت الخنساء لغة الحوار بالإسلام باعتبار السَّبب وختمته بالجنَّة باعتبار النَّتيجة فارتبط أول الكلام بآخره حتىٰ لا يتبادر إلىٰ الذِّهن أنَّ آخر الكلام ينسي أوله وأنَّ ما يعلق به هو آخره فالحوار هنا أوله كآخره مجموعة واحدة متلاحمة الأجزاء متماسكة البنيان تصدر من قلب رحيم ولسان فصيح أبىٰ إلا أن يقدِّم فلذات الأكباد إلىٰ: ﴿جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۢ﴾ **[القمر: 54، 55].**

(1) لسان العرب (ظ ف ر) 4 / 2750، (غ ن م) 5 / 3307، (ك ر م) 5 / 3861، (خ ل د) 2 / 1225، (ق و م) 5 / 3781.